الدكتور خضر جاسم الدوري

نظرات حول ملاحظات الدكتور جورج مقدسي عن الحلة وبني مزيد

من بين القبائل العربية التي لعبت دورا في تأريخ العراق الوسيط بنو اسد. ونخص بالذكر منهم بني مزيد الذين استطاعوا—مستغلين ضعف السلطات المركزية في العراق—ان يقيموا امارة خاصة بهم في مناطق الفرات الاوسط دامت مابين ٣٨٧—٥٥٨هـ/٩٩٧—١١٦٢م. على الرغم من تنقلهم—كبدو— يمكن ان نعتبر كلا من مدينة النيل والفلوجة والجامعين على انها المراكز الاولى لتجمعاتهم او حللهم (مفردها حلة) وفي سنة ٤٩٥/١١٠١ أنشأوا عاصمتهم الحلة كمركز ثابت.

لقد اثيرت مناقشات طويلة حول الشخص الذي بنى الحلة واتخذها مركزا للامارة ومتى كان ذلك. وعالج هذا الموضوع، بأسهاب، الدكتور جورج مقدسي في مقالته التي نشرها عام ١٩٥٤ باللغة الانكليزية (١)، وعالجه ايضا

(١) G. Makdisi, "Note on Hilla and the Mazyadids in Medieval Islam" Jounral of American Oriental Society, vol. 74, pp. 247-262.

الدكتور عبد الجبار ناجي في كتابه الامارة المزيدية وهو يميل الى الاخذ برأي الدكتور مقدسي مع بعض الاضافات البسيطة حيث يقول«...واراني اتفق بصورة عامة مع اغلب النقاط التي جاء بها» ويعني الدكتور مقدسي (٢).

فما هو رأي الدكتور مقدسي؟ وخلاصة رأيه ان الحلة أنشئت في مدينة الجامعين او قريبا منها والتي يراها على انها كانت مدينة مزدهرة قبل بناء الحلة، كذلك يرى ان الحلة انشئت كمركز ثابت للمزيديين قبل سنة ٤٩٥هـ وعلى الخصوص في الفترة مابين سنتي ٤٢٠-٤٤٢/١٠٢٩-١٠٥٠ ويرى بأن ماحدث في سنة ٤٩٥ ماهو الا تجديد او تعمير للمدينة المنشأة سابقا(٣).

ومن اجل اثبات نظرته تلك، عرض الدكتور مقدسي للتناقض الذي وقع فيه ياقوت الحموى اذ قال عند تكلمه على الحلة « ... مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت تسمى الجامعين...وكان اول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الاسدي.وكانت منازل ابائه الدور من النيل، فلما قوى امره واشتد ازره وكثرت امواله لاشتغال الملوك السلجوقية بما تواتر بينهم من الحروب انتقل الى الجامعين موضع في غربي الفرات ليبعد عن الطالب وذلك في محرم سنة ٤٩٥، وكانت أجمة تأوى اليها السباع فنزل بها بأهله وعساكره وبنى المساكن الجليلة والدور الفاخرة وتأنق اصحابه في مثل ذلك فصارت ملجأ»(٤)اما عندما يتكلم ياقوت على الحويزة فأنه يقول: «...وهو موضع حازه دبيس بن عفيف الاسدي في ايام الطائع لله ونزل فيه بحلته وبنى فيه ابنية وليس بدبيس بن مزيد الذي بنى الحلة بالجامعين ولكنه من بني أسد ايضا، وهذا الموضع بين واسط والبصرة وخوزستان في وسط البطائح» (٥)

(٢) الدكتور عبدالجبار ناجي: الامارة المزيدية، (البصرة ١٩٧٠) ص٢٥٤-٢٥٧.

(٣) Makdisi, op. cit., pp. 258-259

(٤) ياقوت: معجم البلدان (بيروت ١٩٥٦) ج٢ص٢٩٤.

(٥) نفس المصدر: ج ٢ ص ٣٢٦.

لقد اعطى الدكتور مقدسي اهمية كبرى لهذا التناقض في قولي ياقوت والذي مرجعه كما يبدو سقطة لسان او قلم خصوصا وان اسماء امراء بني مزيد انفسهم وكذلك اسماء اقاربهم من بني دبيس في الحويرة متشابهة تشابها كبيرا. هذا. على أننا لا ننسى ان ياقوت قد ذكر اسم مؤسس الحلة بشكله الصحيح عندما كان يتكلم عن الحلة نفسها.

وثم نقطة اخرى اثارها الدكتور مقدسي على ياقوت هي انه اعتبر معلومات ياقوت الحموي حول اوضاع مدينة الجامعين قبل انشاء الحلة في عام ٤٩٥ لا يعتمد عليها كذلك. ولأثبات هذا، اعتمد الدكتور مقدسي على اقوال جغرافيين من امثال الاصطخرى وابن حوقل والمقدسي البشارى اذ انهم وصفوا الجامعين بأنها مدينة مزدهرة، مأهولة، وخصبة وهو وصف يراه الدكتور مقدسي مناقضا لما ذكره ياقوت اذ ان الاخير كان قد وصف منطقة الجامعين عند تأسيس الحلة عليها على انها «...كانت اجمة تأوى اليها السباع»(٦).

استنادا الى التناقض بين وصف الجغرافيين السابقين ووصف ياقوت اكد الدكتور مقدسي استنتاجه السابق وهو عدم الثقة بما يقوله ياقوت فيما يخص مدينة الحلة وبنائها. ولكن يبدو ان الدكتور مقدسي مغال في ذلك حيث انه اعتبر اقوال اولئك الجغرافيين عن المنطقة وكأنها حقائق مطلقة لا يمكن تبدلها لا سيما وان اخر اولئك الجغرافيين (المقدسي البشارى) كان قد عاش مابين ٣٣٥ـ٣٩٠هـ وما بين هذا التأريخ وسنة ٤٩٥ وهي السنة التي اسست فيها الحلة فترة زمنية طويلة كفيلة بتبديل اوضاع مدينة الجامعين من الازدهار الى الانحطاط.

أننا نعلم انه منذ السنوات الاولى للقرن الخامس الهجري شهدت الجامعين احداثا كثيرة كانت بلا شك السبب في ذلك التدهور. ففي سنة ٤١٧ «سار منيع أبن حسان امير خفاجة الى الجامعين، وهي لنور الدولة دبيس: فنهبها. فسار دبيس في طلبه الى الكوفة...

(٦) نفس المصدر: ج٢ ص ٢٩٤.

(ثم) سار قرواش الى الجامعين فأجتمع هو ونور الدولة دبيس بن مزيد في عشرة آلاف مقاتل. وكانت خفاجة في الف..»(٧). وفي سنة ٤٢١ وبعد ان عاد دبيس بن مزيد من حربه ضد جلال الدولة«وصل الى بلده، وكان قد خالف عليه قوم من بني عمه. ونزلوا الجامعين واتاهم وقاتلهم، فظفر بهم، واسر منهم جماعة...وحملهم الى الجوسق»(٨).

وفي سنة ٤٢٤ نجد ان ابا قوام ثابت بن علي بن مزيد والبساسيرى سارا معا الى قتال نور الدولة دبيس بن علي بن مزيد«فدخلوا النيل واستولوا عليه وعلى اعمال نور الدولة، فسير نور الدولة اليهم طائفة من اصحابه، فقاتلوهم فأنهزموا. فلما رأى دبيس هزيمة اصحابه سار عن بلده، وبقى ثابت فيه الى» (٩) سنة ٤٢٥. ففي هذه السنة اجتمع دبيس وجماعة من بني اسد وخفاجة وغيرهم «وساروا جريدة لاعادة دبيس الى بلده واعماله...وكانت بينهم حرب قتل فيها جاعة من الفريقين»(١٠).

وفي سنة ٤٤٦ نجد ان بني خفاجة قصدوا «الجامعين. واعمال نور الدولة دبيس. ونهبوا وفتكوا في اهل تلك الاعمال، وكان نور الدولة شرقي الفرات وخفاجة غربيها، فأرسل نور الدولة الى البساسيرى يستنجده. فسار اليه، فلما وصل عبر الفرات من ساعته، وقاتل خفاجة واجلاهم عن الجامعين. فأنهزموا منه ودخلوا البر، فلم يتبعهم فعاد عنهم، فرجعوا الى الفساد، فأستعد لسلوك البر خلفهم اين قصدوا، وعطف نحوهم قاصدا حربهم، فدخلوا البر ايضا..»(١١)

مما ذكرنا اعلاه يبدو واضحا ان الجامعين اصبحت ساحة معركة بين بني اسد انفسهم من جهة وبينهم وبين بني خفاجة من جهة ثانية مما دمر المنطقة.

وفي سنة ٤٤٩ كان هنالك وباء في منطقة النيل ومطير آباذ والكوفة ولذلك

(٧) ابن الاثير: الكامل(بيروت صادر) ج٩ص ٣٥٤-٣٥٥.
(٨) نفس المصدر: ج٩ص ٣٧٦.
(٩) نفس المصدر: ج٩ص٤٣٦.
(١٠) نفس المصدر: ج٩ص٤٣٦.
(١١) نفس المصدر: ج٩ص٥٩٩.

عندما«دخل دبيس بن علي على بلاده...وجدها خرابا لا اكاربها ولا عاملة حتى انه انفذ رسولا الى بعض النواحي فلقيه جماعة فقتلوه واكلوه»بسبب الجوع (١٢)

هذه نماذج قليلة (١٣) تثبت ان مدينة الجامعين—نتيجة للحروب والغزوات والاوبئة—اصبحت فعلا اجمة. وهكذا فأن وصف ياقوت للجامعين ولاوضاعها المتردية وصف صحيح مطابق للواقع ويعتمد عليه بعكس ماذهب اليه الدكتور مقدسي.

وفي معرض نقاش الدكتور مقدسي للنص الذي اورده ياقوت فأنه يرى ان هنالك صعوبات تعترض فهم النص ومن جملتها عبارة ياقوت«وكانت منازل ابائه الدور من النيل» والصعوبة هنا كما يرى الدكتور مقدسي في كلمتي «دور»و«نيل» ويقرر اخيرا ان كلمة دور تعني المنازل او البيوت او الخيم، وهذا صحيح ،اما بالنسبة لكلمة النيل فانه يعتقد انها تعني المادة التي عملت منها المساكن «The stuff of which these habitations were made »

ثم يستشهد الدكتور مقدسي بما يقول صاحب القاموس المحيط في وصفه لنبات مادة النيلة الصابغة ومنها يستنتج ان اجداد صدقة كانوا قد عاشوا في خيام معمولة من نوع من القصب المسمى «النيل»:

« Sadaqa's ancestors lived in tents made of plant called nil. » (١٤)

ثم يؤكد الدكتور مقدسي استنتاجه هذا خلال المقاله(١٥).ونؤكد هنا ان ما ذهب اليه الدكتو مقدسي لايمكن ان يكون صحيحاً مطلقاً حيث انه لم يستطع ان يميز بين صبغة النياة وبين مدينة النيل فالبلاذري يشير الى انه بعد ان مصر الحجاج بن يوسف الثقفي مدينة واسط ونزلها «احتفر النيل والزابي...واحيا ما على هذين النهرين من الارضين واحدث المدينة التي تعرف بالنيل ومصرها»(١٦) كما

(١٢) ابن الجوزي: المنتظم،ج٨ ص ١٨٠-١٨١.

(١٣) انظر الكامل لابن الاثير :ج٩ ص٤٣٦، ابن الجوزي: المنتظم،ج٩ص١١١.

(١٤) Makdisi, Op. Cit., pp. 251-252.

(١٥) Ibid., p. 253

(١٦) البلاذري: فتوح البلدان(القاهرة ١٩٥٩)ص ٢٨٨.

نجد ان الجغرافي المقدسي البشارى يشير الى ان النيل هي احدى مدن كورة الكوفة(١٧).

اضافة الى ذلك فأن ياقوت الحموي يقول انها «بليدة في سواد الكوفة قرب حلة بني مزيد، يخترقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير حفره الحجاج ابن يوسف وسماه بنيل مصر»(١٨).

ثم يورد الدكتور مقدسي بعد ذلك مشكلة اخرى من المشاكل التي ترد في نص ياقوت الا وهي كلمتا «عمر» و«بنى» وهل ان كلمة عمر معناها البناء الجديد او انها تشير الى ان الشيء كان موجودا ثم جدد بناؤه؟.بعبارة اخرى هل ان مدينة الحلة وجدت في سنة ٤٩٥ او انها كانت موجودة من قبل ذلك التأريخ ثم حصنت او عيد تعميرها في تلك السنة؟(١٩).

ومن اجل تبيان ذلك يورد ثلاثة نصوص من كل من ياقوت، ابن الاثير، وابن الجوزي بخصوص الحلة.ويستنتج منها بأن نص ابن الاثير مستمد من ابن الجوزي وذلك للتشابه في المحتوى والشكل بين النصين بينما يرى ان،الاجزاء الرئيسية من نص ياقوت مستمدة من ابن الاثير للتشابه،قبل كل شيء في المحتوى (٢٠).

ولكن لاندري كيف قرر الدكتور مقدسي بأن ياقوت الذي كان قد انهى كتابة معجمه قبل سنة ١٢٢٧/٦٢٥ كان قد اخذ من ابن الاثير اذ ان مجرد التشابه بين عبارات النصوص لا يعني بالضرورة ان احدهما اخذ من الاخر لا سيما وان الجميع كانوا متأخرين عن سنة وقوع الحدث اي ٤٩٥ / ١١٠١ومن الجائز ان كليهما اخذ من مصدر واحد سابق لهما، اما بالنسبة للنص الذي اورده ابن الجوزي فأنه جاء ضمن عرض طويل يتناول فيه تأريخ امارة

---

(١٧) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص١١٤.

(١٨) ياقوت: معجم البلدان، ج٥ ص٣٣٤.

(١٩) Makdisi, op. cit., p. 253 .

(٢٠) Ibid., p. 254 .

بني مزيد منذ نشوئها وحتى سنة ١١٢٢/٥١٦ ويورد ابن الجوزي نصه بخصوص الحله عندما يتكلم عن نشاطات صدقة في الفترة التي اعقبت وفاة نظام الملك، الوزير السلجوقي ،في سنة ١٠٩٢/٤٨٥ حيث يقول عن صدقة «وعمر الحلة وجعل عليها سورا وخندقا وانشأ بساتين...»(٢١)وكما لاحظ الدكتور مقدسي فان ابن الجوزي لم يذكر تأريخ تعمير الحلة، على اية حال فأنه يرى على ضوء ماجاء في نصوص اخرى من المنتظم بخصوص الحلة ان الفعل «عمر »يعني «حصن» fortified الا انه لا يشير الى اي نص من تلك النصوص الاخرى التي اعطته هذا الاستنتاج ،ومع هذا فأنه يبني على ذلك الاستنتاج ان صدقة بنى سورا حول الحلة، التي كانت موجودة سابقا، كوسيلة دفاعية ضد هجوم محتمل كما انه زرع فيها حدائق « Gardens » فليس هنالك شك في ان الحلة -يقول مقدسي- كانت موجودة سابقا(٢٢).

ومن حقنا ان نتساءل انه اذا كان الفعل عمر يعني حصن« fortified » كما يرى الدكتور مقدسي فهل كان من الضروري على ابن الجوزي ان يتممه بقوله«وجعل عليها سورا وخندقا؟»كان عليه ان يكتفي بذكر الفعل عمر اذا كان التعمير يعني التحصين كما يراه مقدسي ولا داعي لاتمام النص بذكر التسوير وحفر الخندق لهذا فليس من الخطأ ان نعتبر الفعل عمر على انه بناء شيء جديد« fined » . امابقية النص فتعني التحصين وباختصار فأن صدقة في سنة ٤٩٥هـ أوجد اوبنى الحلة وحصن ذلك البناء بالسور .وفي نفس النص الذي يورده ابن الجوزي يرد ذكر لانشاء صدقة بساتين في مدينته وهذا ربما يشير الى ان المنطقة كانت خلواً من البساتين وبعبارة اخرى ان الاحوال الزراعية للمنطقة التي بنيت فيها الحلة-اي الجامعين- كانت في ذلك الوقت غير جيدة.وهذا ينسجم تماما مع ماقاله ياقوت من ان الجامعين كانت اجمة تأوى اليها الوحوش.

اما بالنسبة للنص الذي اورده ابن الاثير فجاء فيه«وفيها(اي سنة ٤٩٥هـ) بنى سيف الدولة صدقة بن مزيد الحلة بالجامعين .وسكنها، وانما كان يسكن

(٢١) ابن الجوزي: المنتظم،ج٩ ص٢٣٦.
(٢٢) Makdisi, op. cit., p. 254.

هو وآباؤه قبله في البيوت العربية»(٢٣)وهذا مما لا يدع مجالا لادنى شك في ان الحلة كانت قد انشئت عام ٤٩٥ هـ في الجامعين الا ان الدكتور مقدسي يورد نصوصا اخرى لنفس المؤلف محاولا من خلالها ان يثبت عدم دقة النص السابق وبالتالي لان يعتبر ابن الاثير مصدراً لا يمكن الاعتماد عليه فيما يخص انشاء الحلة.واول هذه النصوص التي يوردها الدكتور مقدسي هو الاتي:

«في هذه السنة (٤٢٠)اصعد الملك ابو كاليجار الى مدينة واسط فملكها، وكان ابتداء ذلك ان نور الدولة دبيس بن علي بن مزيد،صاحب الحلة. والنيل.ولم تكن الحلة بنيت ذلك الوقت—خطب لابي كاليجار في اعماله»(٢٤) يرى الدكتور مقدسي ان معنى ذلك هو ان الحلة كانت موجودة في سنة ٤٢٠هـ وهي السنة التي حدث فيها الحدث طالما ان ابن الاثير يصف نور الدولة دبيس بأنه «صاحب الحلة.والنيل» اما عن عبارة« ولم تكن الحلة بنيت ذلك الوقت» فيفسرها على ان الحلة لم تكن مبنية في وقت ذكر نور الدولة لاسم ابي كاليجار في خطبة يوم الجمعة.

Hilla had not been built at the time that Nur al-Dawla mentioned Abukalijar in public prayer in his provinces .

الا اننا لا نشارك الدكتور مقدسي فهمه هذا لمعنى النص ومن ثم استنتاجه اولا،ان النص.يشير بشكل واضح الى ان الحلة لم تكن مبنية في عام ٤٢٠هـ ويبدو ان ابن الاثير بقوله:«ولم تكن الحلة بنيت ذلك الوقت»، يحاول ان يفسر ان اطلاقه لقب صاحب الحلة،والنيل على دبيس على انه من قبيل المجاز.ومما يثبت قولنا ان الحلة لم تكن موجودة في عام ٤٢٠ هـ هو مايقوله ابن الاثير نفسه متمما قوله عن نفس الحدث والذي يبدو ان الدكتور مقدسي كان قد تجاهله وهو ان كلا من ابي كاليجار ودبيس بن مزيد كان في واسط لمحاربة جلال الدولة،الا ان الاخير تركها الا هواز لينهبها«ولما سمع ابو كاليجار الخبر سار ليلقى جلال الدولة فتخلف عنه دبيس بن مزيد ،خوفا

(٢٣) ابن الاثير:الكامل،ج٩ ص٤٩٥.

(٢٤) نفس المصدر:ج٩ ص٣٧٤.

على اهله وحلله من خفاجة»(٢٥) ويستمر ابن الاثير في شرح الاحوال قائلا «لما عاد دبيس بن مزيد الاسدي، وفارق ابا كاليجار وصل الى بلده، وكان قد خالف عليه قوم من بني عمه، ونزلوا الجامعين واتاهم وقاتلهم فظفر بهم، واسر منهم جماعة... وحملهم الى الجوسق» وبعد ذلك انهزم دبيس الى السندية فنزل من كان معتقلا من قبل دبيس في الجوسق «الى حلله فحرسوها» (٢٦). من هذا النص لانجد اي ذكر للحلة كمركز ثابت او مدينة لدبيس بل ترد كلمة «حللة» وبصيغة الجمع تتكرر مرتين والتي تشير بلا ادنى شك الى مضرب للخيام اي منزل مؤقت وليس مدينة ثابتة. كذلك فعند ذكر ابن الاثير لعودة دبيس من واسط لايرد ذكر للحلة بل ان العودة كانت «الى بلده» ووجد في «بلده» ان قوما من بني عمه ثاروا عليه «ونزلوا الجامعين» ، فلو كانت الحلة موجودة لذكرت هنا كما ان نزول ابناء عمه «في الجامعين» المدينة القديمة التي انشئت عليها الحلة يؤكد ان الحلة لم تكن موجودة في هذه السنة فلو وجدت لورد ذكرها بدل لفظ الجامعين.

ويمكننا ان نقول بأنه لم يرد في الكامل لابن الاثير قبل سنة ٤٩٥هـ ذكر للحلة يفهم منه انها كانت مركزا ثابتا بل دائما كمضرب لخيام احد الامراء وكثيرا ماترد اللفظة مقرونة بأسم ذلك الامير(٢٧) وابن الجوزي يضيف لنا ادلة على ذلك ففي سنة ٤٤٢هـ يقول «ووقعت ...صاعقة في حلة نور الدولة على خيمة لبعض العرب »(٢٨). كذلك في احداث سنة ٤٩٣هـ عندما توفي محمد بن سيف الدولة صدقة بن مزيد يقول: «خرج قاضي القضاة... الى حلة سيف الدولة برسالة من دار الخلافة. . . » (٢٩) واكثر من ذلك ففي احداث

(٢٥) نفس المصدر: ج٩ ص٣٧٤-٣٧٥.
(٢٦) نفس المصدر: ج٩ ص٣٧٦.
(٢٧) نفس المصدر: ج٩ ص ٣٠٤.
(٢٨) ابن الجوزي: المنتظم، ج٨ ص١٤٦.
(٢٩) نفس المصدر: ج٩ ص١١٩.

سنة ٤٩٤هـ عندما طولب سيف الدولة بالمليون دينار والتي كانت سببا في انتقاله الى الجانب الغربي من الجامعين وبنائه الحلة هناك في سنة ٤٩٥هـ طرد الرسول الذي جاء مطالباً به «وكانت كيفية طرده انه نزل في خيمة فأمر سيف الدولة بأن يقطعوا اطنابها فوقعت الخيمة عليه فخرج وركب في الحال»(٣٠). فلو كان هناك بناء قائم في الحلة فكيف يسكن عميد بغداد ورسول الوزير في خيمة.ان الحلة حتى سنة ٤٩٤هـ لم تكن الا مضربا للخيام عمرت بعد ذلك مدينة.

ولنرجع ثانية الى ابن الاثير فأننا نجده في حوادث سنة ٤٤٦هـ يستعمل اسم الجامعين بدلا من الحلة (٣١). وعند وفاة نور الدولة دبيس سنة ٤٧٤هـ فأن مكان الوفاة يرد على انه مطيرا باد وليس الحلة(٣٢).

ومن اجل اثبات ان الحلة كانت قد بنيت قبل سنة ٤٩٥هـ فأن الدكتور مقدسي يورد نصا آخر لابن الاثير عن وفاة منصور بن دبيس سنة ٤٧٩هـ وصف فيه منصورا بأنه«صاحب الحلة والنيل وغيرهما مما يجاورها»(٣٣).
الا ان هذا لا يعني مطلقا ان الحلة كانت حينذاك، مدينة قائمة بل مضرباً للخيام كما ذكر سابقاكما اننا لا ننسى ان بعض المؤرخين المسنمين عندما كانوا يكتبون عن احداث وقعت في منطقة ما فأنهم احيانا يستخدمون الاسماءالشائعة في ازمانهم لتلك المواقع مغفلين اسماءها القديمة وهذا اشبه شيء بارجاع التأريخ الى الوراء.

يعود الدكتور مقدسي مرة اخرى الى ياقوت معتقداً ان ياقوت اخذ نصه الذي اورده عن بناء الحلة من ابن الاثير ومشيراً باستغراب(٣٤) كيف ان ياقوت اخطأ

---

(٣٠) نفس المصدر :ج٩ ص١٢٤.
(٣١) ابن الاثير : الكامل ،ج٩ ص٥٩٩.
(٣٢) نفس المصدر :ج١٠ ص١٢١.
(٣٣) نفس المصدر :ج١٠ ص١٥٠.
(٣٤) Makdisi op.cit.,n.60,pp.250-251.

في اعتباره الجامعين مجرد اجمة، مع العلم ان اوائل الجغرافيين من امثال الاصطخري وابن حوقل والمقدسي البشاري الذين اعتمد عليهم ياقوت في معجمه جميعا ذكروا الجامعين كمدينة مزدهرة مأهولة. وردا على هذا التساؤل يعلل الدكتور مقدسي الامر على ان ياقوت، في قوله ذلك ربما كان يستند الى رواية كانت تتعلق بموقع الجامعين، كانت ماتزال تلك الرواية شائعة في ايامه وهي ان مدينة النرس Nares القديمة—والتي احتلت موقعها فيما بعد مدينة الجامعين— كانت قد وصفت في التلمود على انها اجمة تماماً كما وصف ياقوت الجامعين(٣٥).

ان الدكتور مقدسي يرجع هنا بالتاريخ الى فترات بعيدة جداً ليجد حلا لقول ياقوت ولكن يفوته ان يتذكر احداث التاريخ الاكثر قرباً واعني بذلك احداث السنوات ٤١٧، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٣٥، ٤٤٩هـ التي وردت سابقاً والتي كانت السبب الوحيد في تدمير منطقة الجامعين. ومن اجل القاء ضوء على عملية تبدل الاوضاع في مدينة الجامعين اضيف مثالا اخر، حيث ان مدينة قصر ابن هبيرة التي كانت قريبة الى مدينة الجامعين وصفت من قبل الجغرافي المقدسي البشارى على انها«...مدينة كبيرة جيدة الاسواق يجيئهم الماء من الفرات، كثيرة الحاكة واليهود والجامع في السوق»(٣٦).

كما ان هلالا الصابي ذكر في احد كتبه عن بغداد قائلا: «واما قصر ابن هبيرة فاني أذكر فيه عدة حمامات وكثيراً من الناس منهم قضاة وشهود وعمال وكتاب واعوان وتناء وتجار» ودليلا على ثراء المدينة فأن هلالا يقول في سنة ٤١٥ توسطت لدى شرف الدولة ابن علي «على ضمان النصف من سوق الغزل بها وضمنته بسبعمائة دينار في كل سنة وضمن الناظر في الحاميات من جهة الغرب النصف الاخر بألف دينار...وما بقي في هذا الموضع اليوم(توفي هلال عام ٤٤٨هـ) اكثر من خمسين نفسا من رجال ونساء في بيوت شعثة على حال رثة»(٣٧).

---

(٣٥) Ibid.,p.256.

(٣٦) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص١٢١.

(٣٧) ياقوت: معجم البلدان، ج٤ ص ٣٦٥.

هذا يعني ان هذا التبدل في احوال مدينة قصر ابن هبيرة حدث في الثلاثين سنة الاخيرة من حكم البويهيين اعني مابين٤١٦–٤٤٧هـ.لذا قياسا على ماحدث بالقصر في هذه الفترة الزمنية واستناداً الى ماذكرناه من احداث متشابهة مرت بالجامعين لاسيما احداث سنوات٤١٧–٤٤٩هـنستطيع ان نقرر وبأمان ان الجامعين قبل سنة٤٩٥هـكانت فعلا اجمة كما ذكر ياقوت.

واخيرا، فان الدكتور مقدسي يختم مقاله عن الحلة مؤكدا ان الحلة اتخذت موقعها في مكان قريب من، او ضمن، الجامعين بعد ان اصبحت الاخيرة في سنة ٣٩٧هـضمن ممتلكات المزيديين.ويحدد الدكتور مقدسي بشكل ادق الفترة الزمنية التي اسست فيها الحلة فيقرر انها بنيت في سنة ما، بين٤٢٠–٤٤٢هـ.

الا اننا لانوافقه في ذلك كما وضحنا سابقا ونضيف اننا نقرأ في كتاب الكامل لابن الاثير انه في سنة٤٦٠هـعندما عزل الوزير ابن جهير عن الوزارة«خرج من بغداد الى نور الدولة دبيس بن مزيد بالفلوجة»(٣٨)وحول نفس الحدث نجد ان سبط ابن الجوزي يذكر بأن الوزير المذكور ذهب«الى حلة نور الدين(كذا) ابن مزيد بالفلوجة»(٣٩)لذا فأن حلة نور الدولة كانت بالفلوجة وليست بالجامعين التي اصبحت مكانا لمدينة الحلة فيما بعد.

واختم البحث بالقول بأن صدقة بن منصور اوجد الحلة في سنة٤٩٥هـ(٤٠) في منطقة الجامعين، المنطقة التي كانت انذاك قد تحولت الى اجمة.واود ان اذكر ايضاانهفيسنة٤٩٤هـ كانت علاقة صدقة بن منصور بالسلطان السلجوقي بركيارق متأزمة جداً، وقد انذر صدقة من قبل الاعز وزير بركيارق بان يدفع الدين الذي عليه للخزانة السلطانية والبالغ مليون دينار « والا فبلدك مقصود»(٤١).ولذلك فان انتقال صدقة الى الجامعين التي كانت آنذاك

(٣٨) ابن الاثير: الكامل، ج١٠ ص٥٧.

(٣٩) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مخطوطة المكتبة الوطنية–باريس رقم ١٥٠٦ ورقة ١١٣أ

(٤٠) ابن الجوزي: المنتظم، ج٩ ص١٣٢.

(٤١) نفس المصدر: ج٩ ص١٢٤.

اجمة واختياره بشكل خاص جانبها الواقع على ضفة الفرات الغربية يشير الى انه خطا خطوة موفقة من حيث الاهمية الاستراتيجية، كما لا يفوتنا ان نتذكر بأن الاجام كانت الاماكن المفضلة للثوار او للخارجين على القانون(٤٢). ولهذا فنحن نجد ان سبط بن الجوزي عندما يتكلم على صدقة وعلى بنائه الحلة يذكر لنا بان جماعة من البدو وقطاع الطرق لجأوا اليه(٤٣).

(٤٢) انظر مثلا : المنتظم، ج٨ ص٧٢.

(٤٣) سبط ابن الجوزي: مرآة، مخطوطة-البودليان، رقم ٦٥٨، ورقة ١٣٢.